

دور الزوايا في مواجهة العولمة:

مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية *

من بين المذاهب والاتجاهات المتعددة التي نشأت وتعاقت عبر التاريخ الممتد للإسلام، كان التصوف الذي تولدت منه طرق صوفية استقطبت العالم الإسلامي بالتفاف الأفراد والجماعات حولها، مما استلزم إنشاء فضاء للعبادات وللحركات الاجتماعية تمثلت في الزوايا المؤسسة الدينية والتعليمية والاجتماعية والثقافية والقضائية للتصوف الطريقي. وانطلاقاً مما سبق يظهر لنا الدور الكبير الذي اضطلعت به الزوايا في المجتمع الإسلامي قديماً وحديثاً، فهل باستطاعتها الآن مواجهة¹ عملية تاريخية² متعددة الأبعاد تؤثر في المجتمع وأنظمتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وتعد من العمليات الهامة الحدثة للتغير العالمي معتمدة في ذلك على وسائل اتصالية وتكنولوجية تقرب المسافات المادية والمعنوية (الجغرافية والاقتصادية والثقافية...) لتحوّلها إلى قرية واحدة؟ ألا وهي العولمة.

دفعتنا أسباب متعددة إلى بناء هذا الموضوع الذي يربط بين الزوايا³ والعولمة نذكر أهمها: أولاً- برؤية ماكروسوسيولوجية تشير الزوايا والعولمة إلى التقليدية والحداثة. مفهومين بينهما علاقة تتسم بالاتصال والانفصال في نفس الوقت، ويميزان سيرورة وصرورة كل مجتمع إنساني في تطوره وتغيره، ومن جهة أخرى تنبثق من هذين المفهومين قضايا أساسية متعلقة بالثقافة والهوية والانتقالية المجتمعية، والصراع... ثانياً- محاولة للإجابة على إشكالية طرحها أحد الباحثين في علم الاجتماع⁴، والتي تتمحور حول قدرة الزوايا على المحافظة على كينونتها في ظل العولمة. فما العولمة؟ وما هو واقع المجتمعات العربية والإسلامية الحالية؟ وكيف للزوايا أن تتجاوب مع تحديات عصر العولمة؟.

ما ميز العالم الآن هو هيمنة الثقافة الغربية التي تعمل على صنع ونشر ثقافة واحدة تكسر فيها الأقاليم وتذوب فيها كل الثقافات المحلية بفعل ما يسمى بالعولمة التي حولت العالم إلى قرية صغيرة معتمدة على عدة أبعاد⁵:

*- أ. زاوي- قسم الإعلام والاتصال- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- ج. وهران.

- 1- اقتصادية مؤسسة على الاعتماد المتبادل بين الدول والاقتصاديات القومية ووحدة السوق المالية.
- 2- سياسية من خلال ليبرالية جديدة شعاراتها الديمقراطية، التعددية السياسية وتحقيق حقوق الإنسان.
- 3- ثقافية موجهة لصياغة ثقافية عالمية لضبط سلوك الأفراد، الجماعات والدول، وكذلك تنميط الأذواق والحاجيات الاستهلاكية بفعل عولمة الثقافة الناتجة من التطور الصناعي: فالطموح الطبيعي لكل صناعة ثقافية هو الاستحواذ على السوق العالمية، والتدخل في الثقافات والتقاليد لتحويلها ومرات تحطيمها⁶.
- 4- إعلامية مستخدمة وسائل الإعلام والاتصال والشبكات المعلوماتية كون الإعلام سلاح العولمة في التأثير والتوسع.

ويراها البعض أنها تشبه الاستعمار⁷؛ فهي تركز هيمنة الدول الأكثر تقدماً على الدول الضعيفة والنامية، وتحاول تحويل العالم إلى مرحلة جديدة من الرأسمالية التكنولوجية بهيكلية جديدة للاقتصاد والسياسة والثقافة، تسمح بالدخول في نظام كوني بعيد عن القوميات ينشر تكنولوجيات ذات اتصال أكبر تتحكم في الوقت والمسافات متجاوزة مفهوم الزمن والمكان لخلق ثقافة كونية⁸.

في ظل هذه العولمة فما هو واقع المجتمعات العربية والإسلامية منها، وما هو موقع ثقافتها فيها؟ هذه المجتمعات تعاني توتراً حاداً بين الاقتحام والانخراط المطلق (العولمة) أو النسي (المقاومة) فيها، بدافع الحداثة والتحديث⁹، وبين الانكفاء على الذات والموروث ورفض ما يرد من الخارج (الممانعة)¹⁰.

وإذا ألقينا نظرة منوغرافية ثقافية شاملة على هذه المجتمعات نجد:

أ- دول لم ترتق إلى مرتبة الدول القومية - مثلما كانت عليها في مرحلة تاريخية ماضية، نشأت في سياق التبعيات، ومن جهة أخرى مازالت تعيش مرحلة انتقالية مأزقية من التقليدية إلى الحداثة.

ب- مجتمعات تستهلك وتمتص ثقافة الصورة التي تعد سلاح العولمة وقوامها بدون عيون نقدية مما يجعل درجة تأثيرها كبيرة على المتلقي.

ج- تتميز بثقافة الفقر التي من خصائصها شعور الفرد والمجتمع على السواء بالنقص والحرمان والإحباط والتبعية والإقصاء على المستوى الداخلي والخارجي، تحت تأثير الحرب النفسية.

وهذا ما يجعل الممانعة أو المقاومة مستحيلة، وبالاتصال أصبحت العولمة حدثاً يعيش كمخيال وخاصة كنسق من التمثلات الموحدة، أين يصبح كل شيء منصهراً كأنه عالم باطني حيث تتحلل وتذوب فيه كل الأشكال المتقاطبة، مقدس/زمني. روح/جسد. ذكر/أنثى... لتصبح العولمة بذلك سيرة نموذجية لا تعترف بوجود الآخر والهويات¹¹.

مادامت المعركة ضد العولمة خاسرة وفق هذه الرؤية فكيف يمكن تحويلها إلى مقاومة إيجابية وبأية وسيلة نعيد استثمار الطاقة الثقافية الرمزية المحلية للحفاظ على الهوية الجماعية وفي نفس الوقت تكون قادرة على القيام بهذا الدور المركزي؟

إذا بحثنا في المكونات الثقافية ذات البعد الديني الإسلامي والتي اضطلعت بهذا الدور المتعلق بالحفاظة والتعايش والانتقال، لهذه الثقافة عبر المراحل التاريخية للمجتمعات الإسلامية ومنها المجتمعات المغاربية، فسنجد من بين هذه المكونات الطرق الصوفية¹² ومؤسستها الزاوية¹³، المؤسسة الروحية والمادية للتصوف الطرقي التي تتميز بعدة خصائص:

1- الزوايا مفهوم «يحمل عدة دلالات ويغطي ظواهر اجتماعية وسيرورات تاريخية متباينة من مكان مئز للتعليم والتلقين مروراً بمكان تجمع لموردين حول ولي باحثين عن الخلاص الديني والروحي إلى مجال جغرافي ديني ذي وظيفة ودور اجتماعي مؤثر¹⁴ فالزاوية بالهندسة الاجتماعية هي زاوية لرؤية المجتمع والعالم، ومؤسسة للتأطير الاجتماعي.

- من الناحية التاريخية لعبت الزوايا دوراً اجتماعياً كبيراً بين الناس في فترات مهمة من التاريخ الإسلامي والمغاربي الماضي.

كانت لها مهمة في التأطير الاجتماعي، وفي بناء أقاليم جيوغرافية، دينية وسياسية، وحتى في حل بعض الأزمات الاقتصادية¹⁵.

وما كثرة علماء الأناسة الكولونالية¹⁶ الذين جندوا لدراسة الزوايا والتصوف الطرقي في القرن 19م إلا دليل على المكانة التي كانت تحتلها هذه المؤسسة الدينية في المجتمع المغاربي والإسلامي.

2- الزوايا مؤسسة اجتماعية مستمرة في دورها الروحي والديني مقارنة مع مؤسسات اجتماعية أخرى. تتصف باستمرارية نسبية النشاط واختلافية المضمون، خصت كل جيل عن آخر بسبب التحولات¹⁷ التي طرأت عليها بفعل التغير الاجتماعي ومتأثرة بكل سياق ظهر مع كل مرحلة مرت بها مجتمعاتها، إلا أنها ظلت قائمة ولحد الآن.

3- تتميز الزوايا كذلك بخاصية الانفتاح على الواقع الاجتماعي الخارجي وعلى ذلك فهي تطبق المبدأ الغيري¹⁸.

4- كل ما ذكر سابقاً يجتمع في خاصية جامعة هي الثقافة باعتبار أنها "تجذر ثقافات المجموعات الإنسانية في محيطها وتشكل الملجأ الذي يحتضن به ويدافعون به عن ذواتهم

دور الزوايا في مواجهة العولمة - مقارنة سوسيو أنثروبولوجية - أ. الزاوي

الاجتماعية من الذوبان¹⁹ والتبعية، وهذا ما تقوم به ثقافة الزوايا في المجتمع الذي تنتمي إليه، ويتجلى ذلك في الوظيفة التي تؤديها مع محيطها الاجتماعي فهي تقوم:

- بمهام تربوية تركز على التربية الروحية والأخلاقية بالدرجة الأولى، النابعة من الكتاب والسنة، والمؤسسة على التصوف الذي تحول في إطار الزوايا إلى وظيفة موضوعية مرتبطة بأدوار روحية، واجتماعية مثل:

أ. مهام تعليمية تتمثل في تعليم المبادئ الدينية والبلاغية، وتلقين الأوراد والأذكار.

ب. مهام اجتماعية حيث تقوم بتقديم المساعدة والعون للفقراء والعجزة وعابري السبيل... وغرس روح الأخوة والتضامن والانتماء.

ج. مهام قضائية كالتوسط في النزاعات بين الأفراد والجماعات والصلح بين ذات البين، وصولاً إلى دور سياسي حيث كانت تمثل السلطة المركزية في أقاليمها.

د. مهام دينية فهي مجال روعي تقام فيه الصلوات ويتلى فيه القرآن والأذكار....

ولتأدية هذه المهام والأدوار قامت الزوايا بتأسيس المساجد وفضاءات للتدريس وبعض المرافق الاجتماعية لتصبح الزوايا بذلك مؤسسة اجتماعية أكثر ضرورة عندما يتعلق الأمر بحجم الخدمات التي تقدمها في محيطها وبنوع الأدوار الموكلة إليها²⁰.

- انطلاقاً من هذه المهام تسعى الزوايا إلى الحفاظ على الدين و على المخزون الثقافي في المجتمع وضمان استمراريته عبر الأجيال، حيث تنسم بآليات اجتماعية تكرر الذاكرة الجماعية التي تساهم بقدر كبير في استمرارية وانتقال الثقافة من مجتمع إلى آخر مستخدمة من أجل ذلك الرموز التي هي «وسيلة لإثارة العواطف والأحاسيس وحث الناس على الفعل وهي عادة تحدث في أنماط منتظمة من الأنشطة كالشعائر الدينية والطقوس»²¹. مثل شعائر الزوايا المتمثلة في الأذكار والأوراد والمنظومات الصوفية كلها تتميز بالكلمة التي يقول عنها مالبينوفسكي: الكلمات تشارك في النشاط وربما هي أكثر من نشاط فهي لا تعبر عن الأفكار بل تلعب دوراً براغماتياً نشطاً في السلوك الإنساني.

- والكلمة الفعالة مرتبطة بالفعل الجماعي كشعائر العبادة، وحلقات الذكر و تلاوة الأوراد التي يرافقها غالباً حلقات صوفية جماعية رتمية تعرف باسم الحضرة أو الجلالة عند بعض الطرق المغاربية، هي أدوات فعالة لغرس توجه ثقافي²² هدفه نشر الثقافات، وهي أيضاً وسائل هامة في عملية التواصل الجماعي في طابعها الأنثروبولوجي وكذلك في التواصل بين الأجيال لتكون سبباً أساسياً في استمرارية هذه المؤسسة.

وبما أن الثقافة لها طابع ديناميكي لا سباتيكي لعلاقتها المتداخلة والمتصارعة والمتناسقة وأحيانا متكاملة مع النظام³² جعلت هذه العلاقة الزوايا تتميز بالانفتاح على الآخر، وعلى الواقع الاجتماعي الذي ساعدها على القيام بوظيفة التأطير الاجتماعي، كيف إذن ستقوم الزوايا بهذا في ظل العولمة الثقافية؟

- إن الانفتاحية والتعايش اللذين تتميز بهما الزوايا كانا من العوامل الرئيسية في نشر الإسلام- بعد الفتوحات الإسلامية- سيكونان من العوامل الهامة في عملية الثقاف الإيجابي مع الثقافة الغربية هذه الأخيرة سيكون صعب عليها، احتواء هذه المؤسسة الثقافية الدينية فمازالت الزوايا مجالا للفعل الجماعي (تلاوة، حلقات الذكر، حضرة، صلاة) فهي بنية مبنية من ارتباطات روحية، شعائرية وجماعية هي أكثر متانة وصعوبة من العلاقات المهنية²⁴.

يقول أندري مارلو (Andre Marlaux²)⁵ أن القرن 21م سيكون أكثر تصوفا في التاريخ، في ظل الروحيات الجديدة التي لها علاقة ببراغماتية المجتمعات الغربية، فالرجال والنساء يبحثون عن إلهام وراحة في عمق الحياة الإنسانية مما يلزم التفكير في كيفية تقديم الثقافة الإسلامية كثقافة روحية إنسانية والكيفية هذه تستطيع أن تقوم بها الزوايا المؤسسات الروحية والمادية للتصوف الروحي الإسلامي.

- وفي الأخير نطرح نحن كذلك تساؤلا آخر مكملًا للتساؤل الذي حاولنا الإجابة عنه : فإذا استطاع التصوف الطرقي الوصول إلى التواصل الروحي الإلهي والتواصل الاجتماعي فما هي القنوات والوسائل التي يستطيع أن يبني بها اتصالا وتوصلا واعيا مع الثقافة الغربية المبنية على الأسس المادية؟

دور الزوايا في مواجهة العولمة - مقارنة سوسيو أنثروبولوجية- أ. الزاوي

الهوامش:

- 1- ونقصد هنا بالمواجهة: المحافظة على الهوية وفي نفس الوقت التعايش و التجاوب مع التغير الذي يطأ على العالم الخارجي باعتبار أن المجتمع الإنساني مجتمع ديناميكي -
- 2- ندرس هنا الزاوية بافتراق سوسيو أنثروبولوجي باعتبارها مؤسسة اجتماعية كباقي المؤسسات الأخرى خاصة وأنها لعبت أدواراً عدة: اجتماعية، دينية، سياسية... في جميع مراحلها.
- 3- فيك جورج وبول ويلدينج، العولمة والرعاية الإنسانية ترجمة طلعت السروجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة

0052 ص 31

4- ABDELWAHEB CHERNI, *le sacre des zaouïas face à la mondialisation*, 16^{ème} congrès de l'association internationale des sociologues de la langue française, Québec, 2000,

وثيقة توجد في معهد البحوث المغربية المعاصرة تونس من 4 صفحات.

- 5- عبد الإله بلقزيز العولمة والممانعة دراسات في مسألة الثقافية، منشورات رمسيس، الدار البيضاء، 1994، ص 14
- 6- JEAN PIERRE WARNIER, *la mondialisation de la culture*, la Découverte, Paris, 2003, p3.

7- أولريش باك، ماهية العولمة، ترجمة أبو العيد دودو، لولالي كولونيا، ألمانيا.

8- المرجع نفسه.

- 9- التحديث الذي يلزم عليها إتباع الغرب وتقليده في تجاربه التحديثية ومنه تأتي الفكرة الهدامة بالتضحية بالثقافات المحلية لتحقيق النمو والحدادة. أحمد خوجة، الذاكرة الجماعية والتحول الاجتماعي من مرآة الأغنية الشعبية، منشورات البحر الأبيض المتوسط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 1998 ص 16.

0- عبد الإله بلقزيز - العولمة والممانعة - ص 26-27. 1

11- ABDELWAHEB CHERNI, op.cit., p1-2

- 2- ظهر مع نهاية القرون الوسطى في بلاد المغرب حدث ديني جديد وعظيم تمثل في الانفتاح على التصوف والذي كان سببا في توسع الطرق الدينية في بلاد الغرب الإسلامي خاصة مع القرن 15 م أنظر:

ATTALAH DHINA, *les états de l'occident musulman aux XII, XIV et XV siècle*, ENAL, Alger 1984, p301,

- 13- بعد الرباطات ظهرت كلمة الزاوية التي شينا فشيننا أخذت معنى الرباط في بلاد الغرب الإسلامي، وفيما بعد استطاعت أن تقضي على كلمة الرباط وتصبح الزاوية تسمية تطلق على مؤسسة التصوف الطرقي أو الولاية المرجع نفسه ص 304.

14- رجال بوبريك "الزوايا بين الكتاب والسيف" أمل العدد 22-23 دار البيضاء 2001 ص 132.

- 15- جاء ظهور المتصوفة افرازا للأزمة التي طالت المجتمع في المرحلة الأخيرة من العصر المرابطي بسبب نضوب موارد الاقتصاد... قام المتصوفة بمحاولة لإعادة التوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فلعنوا أدواراً متنوعة في كل المجالات: بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت 1993 ص 155-172.